الكامل في التاريخ

يُعتبر «الكامل في التاريخ» من أهمّ المصادر التاريخية عند المؤرّخين المسلمين بما يُعرف في «العصر الوسيط» لشموليّته تاريخ العالم الإسلاميّ من أقصى بلاد الهند ونواحي الصين، شرقاً، حتّى أقصى بلاد المغرب والأندلس، غرباً، وتناوُلِهِ لأخبار الروم والفرنج الأوربيّين، وأخبار الكُرْج، والبلغار، والصّقالبة، والأرمن، وغيرهم من الأُمم. وتَغْطِيتِهِ لفترةٍ طويلةٍ من عصر الحروب الصليبية، وهي المرحلةُ الحافلةُ بالأحداث الخطيرة، والتي تعرّضتْ فيها بلاد الشام ومصر لخطر الحملات والاحتلال، ومرحلةُ المقاومة والنضال، وتحريرُ الرُّها وبيت المقدس. إذ كُتِب لمؤلِّفه أن يعاصر أُسرَتَيْنْ جاهد أفرادُها في اللَّه حقّ جهاده ضدّ الغُزاة الأوربيّن الصّليبيّين الذين استهدفوا ضرْبَ مقوّمات الأمة، هما الأسرة الزّنكيّة، والأسرة الأيّوبيّة، فهو من ناحيةٍ، عاش في كنَفَ الزّنكيّين بحكم إقامته في المَوْصل قاعدةِ ملكهم. ومن ناحيةٍ أخرى فقد رافق السلطانَ الناصرَ صَلاح الدّين في بعض غزواته ضدّ الصليبيّين. إذ يذكر في حوادث سنة ٥٨٤ هـ. أنه كان شخصياً مع السلطان صلاح الدين حين نزل تحت حصن الأكراد الواقع داخل حدود «كونتية طرابلس» الصّليبيّة، ولكنّه لا يصرّح إنْ كان قد رافقه في إغارته على الحصون القريبة من هناك، ووصوله إلى قرب طرابلس الشام حيث «أبصر البلاد وعرف من أين يأتيها، وأين يسلك منها» ورغم ذلك، فإننا نصبح أكثر ثقةً وتثبُّتاً بما يرويه «ابن الأثير» عن هذه المنطقة في تلك الحقبة، فهو الأقرب إليها زماناً ومكاناً، وهو هنا يماثل الكاتب المؤرّخ «العماد الأصفهانيّ» بمُعاصرته ومُعايشته للأحداث، ومرافقته لصلاح الدّين، وكذلك الأمرُ بالنسبة للمؤرّخ «بهاء الدين ابن شدّاد» صاحب كتاب «النوادر السُّلطانية في المحاسن اليُوسُفيّة».

وإذا كان «ابن الأثير» قد اعتمد في تاريخه على كتاب «تاريخ الرُسل والملوك» لابن جرير الطبريّ اعتماداً أساسياً، وصرّح بذلك في أكثر من موضع، فإنه أتى بأخبار ووقائعَ لم يذكُرها «الطبري» في تاريخه. إذ من المُلْفِت للاهتمام، ويدعو للتساؤل والاستغراب، أنَّ «الطبريّ» مع تَتَبُّعه المُسْهَب لحركة الفتوحات الإسلامية في أقاصي بلاد الشرق وبلاد الغرب، فإنه يُهمل الحديث تماماً عن كيفية فتح المسلمين للساحل الشاميّ،

وخصوصاً للمدن المعروفة: بعلبكّ، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وغيرها من مدن الساحل، مع أنه يعرف ساحل الشام، وتحديداً ساحلَ دمشق، بشكل خاصّ، فقد زاره أثناء طَلَبِه للعِلْم، ونزل بيروتَ وأقام فيها مدّة وقرأ القرآن بالرويات العَشْر على الحافظ المقرىء «العباس بن الوليد بن مَزْيَد العُذْري البيروتيّ»[1]. فأتى «ابن الأثير» ليسُدّ هذه الثغرةَ في «الكامل»، فنقل خبر تلك الفتوحات عن «فتوح البلدان» للبلاذُريّ. وهذه قضيّة واحدة من جملة قضايا، أهملها «الطبري» وعمل «ابن الأثير» على إثباتها وتدوينها اعتماداً على المصادر القديمة المعروفة لدينا، أوالمصادر القديمة المفقودة التي لم تصلنا.

وبذلك يكتسب «الكامل» نقطتين على «تاريخ الطبري»:

الأولى: إحاطتُه لمعلومات إضافية مهمَّة نَدَّت عن «الطبري».

الثانية: حِفْظُهُ لنصوص أخبار ضاعت مصادرها الأساسية.

وفي هذا السياق، لا بدّ من الإشارة إلى المنهجية التأريخية التي انتهجها ابن الأثير في «الكامل»، وهي إسقاطه للروايات المتكرّرة التي حشدها «الطبري» في تاريخه، ونقْدُه لها، والأخْذُ بصحيحها، وتهذيبُها من الأسانيد المُثقلة للرواية والخبر، وأظهر بذلك حسَّه التأريخيّ الواضح والمتفوّق عمّا عداه من العلوم والفنون التي شارك فيها.

وإذا كان قد حذا حذْو «الطبري» في تأريخه لبداية الخلْق والزمان وصولاً إلى البعثة النبوية وظهور الإسلام، مروراً بتاريخ الرُسُل والأنبياء، فإنّه لم يسلّم بكلّ ما نقله عنه، بل أعمل النقدَ في مواضع كثيرة، وزاد عليه باباً مهمّاً تناول فيه «أيام العربِ في الجاهلية» لتأصيل تاريخ الأمّة العربية، وهذه فلسفة للتاريخ القوميّ حرص مؤرّخنا أن يشدّد عليها في مضامين «الكامل».

ويكاد كتاب «الكامل» أن يكون النموذج الأول في كتب التواريخ العامّة المعروفة بالحوليّات، التي اهتمّت بعرض الوقائع والأحداث في مختلف بقاع الدنيا ـ المعروفة آنذاك ـ، وتسجيل الوَفَيَات في نهاية كلّ سنة، مع التزام الإختصار. وأصبح هذا المنهج في تدوين التاريخ والتراجم هو المنهج التقليديّ الذي اتّبعه المؤرّخون اللاّحقون أمثال «أبي الفداء» في «المختصر في أخبار البشر» و «الحافظ الذهبي» في «تاريخ الإسلام ووفَيَات

---

(١) أنظر كتابنا: موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ـ ق ١ ج ٣/ ٢٠ ـ ٣٣ رقم ١٣٥، بيروت ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤ م.

المشاهير والأعلام» و«ابن كثير» في «البداية والنهاية» و «المقريزي» في «السلوك لمعرفة دول الملوك» و «ابن الجَزَري» في «حوادث الزمان وأنبائه ووفَيَات الأكابر والأعيان من أبنائه»[١]، و «ابن حجر» في «إنباء الغمر بأنباء العمر»، وغيره.

ولن أطيل على القارىء الكريم في عرض ما يتميّز به «الكامل» عن المصادر التاريخية الأخرى، فهو قد بلغ من الشُهرة ما يكفيه. ولكنّني أودّ، في الختام، أن أنوّه بأنّ مؤلّفه «ابن الأثير» المقيم في الموصل، دوّن في ثناياه أخباراً مُسْهَبَة ودقيقة عن بلاد المغرب والأندلس لا نجدها في كثير من المصادر المغربية أو الأندلسية المعاصرة. وهذه واحدة من الخصائص المميّزة التي ينفرد بها «الكامل» دون سواه من مدوّنات عصره في المشرق والمغرب على السواء.

(١) أنهيتُ تحقيقه عن النسخة الفريدة بخط المؤلّف وسيأخذ طريقه للطباعة قريباً بإذن الله تعالى.